تطالب فيه السنبلة شوكة القندول ان لا تقتلها ولكن الشوكة تأبى لان القتل مهنتها ، وتأتي في النهاية النار لتنهيهما معا ... الخ وكما في قصيدة « حيث صار الموت عادة » .

كما ان للشاعر سميح اهتماما ما زال ، في تلك المقاطع الغنائية الصغيرة التي تشبه التوقيعات ، والتي اختفت او كادت من شعر محمود درويش ، فهي لم تعد تغني في ضربتها الواحدة ما تملك ان تغنيه القصيدة الحديثة بضرباتها الداخلية العديدة. ما الذي تستطيع ان تعطيه عشرات من هذه القصائد — المقاطع ، المتشابهة :

ان مت ظمآنا
فلا تبخل على سواي
يا قطر :
العازف بعض الناي (ص ٢٠١)
...
اعيش بالدين وبالتقسيط ،
أموت يا مولاي
ومن ثقوب الناي
ألفظ أنفاسي ، وللقصائد التحنيط (ص ١٩٠)
...
وطني محتقن في
فما حبر يسيل
عند اقدام القتيل ؟ (ص ١٦٥)

ان الطرافة الشعرية التي تتسم بها قصائد سميح القاسم ، والتي تأخذ لها وجوها كأن تكون قصيدة في بيت واحد كقصيدة « ضيق » التي يقول فيها « لمحاكم التفتيش اشكو ! » (ص ٢٠٨) او قصيدة متضمنة فاصلا نثريا صحفيا كما في قصيدة « الجواد الابيض يصهل على التل »، او السخرية التي لا تخلو من مرارة الخيبة وخاصة في قصائده القصيرة كقصيدة « لا مفر » .. و « محاولة لتركيب صورة قديمة ممزقة » و « الزبانية والسفير الساذج » .. الخ ، اقول ان تلك الطرافة الشعرية ، والخطابية اذا كانت القصيدة بصوت الشاعر ، او استخدام الشخوص ، والحكاية .. كلها لازمة من لوازم المباشرة الغنائية لدى سميح القاسم ، التي تشكل جوهر تجربته الغنية.

ان هذه الملاحظات التي تعرضت فيها لتجربة سميح الغنية فقط دون مضامينه ورؤياه للانسان والعالم، انما جاءت بمقتضى حال ما هو معروف عن شعر الارض المحتلة ، فمواضيعه معروفة وكذلك رؤياه، خاصة عند سميح وزملائه — باستثناء محمود درويش حيث استطاع ان يغير قدرا هاما من تجربته . واذا ما لاحظنا لدى محمود درويش في دراستنا عن مجموعته « أحبك او لا احبك » ، ان « الحصار » كان يشكل محورا هاما في رؤياه لذاته وللعالم ، فان « الحزن » لدى سميح القاسم هو هذا المحور ، فما من قصيدة تطالعها الا وتجد الحزن ينبوعا لا ينتهي وموردا لا ينضب ، وقد يأخذ هذا الحزن شكل الدموع تارة او شكل الموت تارة أخرى ، الموت الذي يدمر والذي يجدد ، والدموع التي تغلق ابواب المملكة والتي تفتحها (ص ٨) .

« فمن الحزن امتشق الحالمون حرابا ، وامتشقوا زهرة الفرح (ص ٢٨) وها هو الشاعر يقابل الثائر في « ردهة الحزن » ذلك الثائر الذي « أخذ الحكمة عن كتب الحزن » (ص ٩٩) . والذي يقول في مكان اخر .

الف شكر
بلغ الحزن بنا سن الرجولة
وعلينا ان نقاتل » (ص ١١٦)

والموت ذاته يأخذ هذا الشكل ليكون ينبوعا للحياة، فكثيرا ما يصرخ الشاعر متفجرا هوذا الموت
جوادي الابيض الصاهل في كل الجهات
هوذا الموت (ص ٢٦)

وهو يلتقي به « بين انقاض حزيران ليتداخلا ، ويشتعلا ويضيئا » (ص ٨٦) ... الخ . وليس غريبا ان يكون الموت ينبوعا للحياة ، ولطالما شغلت هذه المعادلة الحية الشعراء ، فسقطوها بين الحكايات والاساطير ليعيدوا على ضوء الرؤيا الحديثة حقيقة الموت والانبعاث الخالدة .

فوزي كريم